الآثار العراقية في قبضة الحملة الأمريكية

د.فرج الله أحمد يوسف*

مقدمة:

أثناء مراسم الاحتفال بتوقيع معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٨م قرأ مناحيم بيجن أحد المزامير التي تتميز غيظًا على (بني آدوم) العرب، و(ابنة بابل) العراق:

(على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا قيثارتنا .. هناك طلب منا الذين سبونا أن ننشد لهم. قالوا: أنشدوا لنا أناشيد صهيون. كيف ننشد نشيد الرب في أرض غريبة.. إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني ليلتصق لساني بحنكي إن كنت لا أذكرك إن كنت لا أعلي أورشليم على ذروة فرحي .. أذكر يا رب بني آدوم يوم سقطت أورشليم. قالوا: أهدموها حتى أساسها. ابنة بابل الصائرة إلى الخراب .. هنيئًا لمن يعاقبك على ما فعلته بنا .. هنيئًا لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخر).

لم يبدأ التخطيط للحملة الصليبية الصهيونية على العراق للرد على أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، أو للبحث عن أسلحة الدمار الشامل المزعومة، أو إسقاط نظام صدام حسين، بل كان السبب الرئيس للحملة هو تحقيق الجزء الثاني من الحلم المشترك للتحالف الصليبي الصهيوني، فبعد أن أحكم التحالف سيطرته على فلسطين جاء دور العراق لتمتد الدولة من النيل إلى الفرات.

وما أن بدأت طلائع الحملة تجتاح أراضي العراق حتى أصدر مجلس حاخامات الكيان الصهيوني فتوى تقضي بأن العراق جزء من أرض الميعاد للشعب المختار استنادًا لما جاء في التوراة بأن أرض إسرائيل تقع بين النيل والفرات، ثم ظهرت إثر ذلك فتاوى صليبية تزعم بأن المسيح وطبقًا لنبوءة دانيال في العهد القديم، ورؤيا يوحنا في العهد الجديد سينزل في مدينة بابل بالعراق ليحكم الأرض، وقد صرح العديد من القساوسة الأمريكان بأن الحملة ستؤدي عاجلاً أم أجلاً إلى وقوع معركة هرمجدون ونزول المسيح ليحكم العالم ألف سنة.

وبعد أن توغلت قوات الحملة داخل الأراضي العراقية صدرت الأوامر للجنود بتلاوة دعاء من التوراة قبل الشروع في أي عمل ميداني في المناطق الواقعة غرب نهر الفرات لأنها جزء من أرض إسرائيل الكبرى، وأن تلاوة هذا الدعاء تساعد في تخليص هذه الأرض وتحريرها، ونص الدعاء المأخوذ من التوراة هو: (مبارك ربنا ملك العالم لأنك دمرت بابل المجرمة).

* دار القوافل – الرياض.

وبعد دخول قوات الحملة الصليبية الصهيونية بغداد في التاسع من أبريل ٢٠٠٣م صدرت صحيفة هاآرتس الصهيونية وهي تحمل العنوان التالي: (إن سقوط بغداد واحتلال العراق يمثل ميلادًا جديدًا لإسرائيل)، وبعد سقوط بغداد بأيام قدم قادة الحملة فطائر عيد الفصح لليهود العراقيين في كنيس يهودي ببغداد مصحوبة برسالة تهنئة من الإرهابي الصهيوني شارون، واحتفل الحاخام الصهيوني ميتشل أكيرسون بعيد الهانوكاه في بغداد، (وأكيرسون ضابط برتبة مقدم في الجيش الأمريكي)، وبعد الاحتفال وجه الشكر إلى مدرسة رامازا الصهيونية في مانهاتن لقيامها بإرسال شموع الهانوكاه، وبعض الملصقات والمطويات، وذكر الحاخام الصهيوني أنه بدأ طقوس الاحتفال بالعيد في الكويت ثم استقل طائرة أقلته إلى بغداد ليقيم الاحتفالات بالعيد في القصر الرئاسي، ويسرد وقائع الاحتفال بقوله: (أضأنا شموع الهانوكاه في مخدع صدام حسين وبجانب كرسي عرشه الرئاسي وانتقلنا لنشعلها في قصر ابنه عدي كرمز لتحقق معجزة الهانوكاه هذا العام، والعام القادم سنحقق معجزة هانوكاه أخرى حينما نشعل الشموع في هيكلنا وقد أعيد بناؤه في القدس أرضنا المقدسة).

أما الحاخام كارلوس هيرتا (وهو ضابط برتبة رائد في الجيش الأمريكي) فقد سجل انطباعاته عند دخوله الموصل بقوله: (لقد ذهبت إلى قبر النبي يونس وهناك خشعت وقلت هانحن قد مررنا بمدينة أور المقدسة حيث ولد إبراهيم ... قلبي يخبرني أنها ستعمر باليهود قريبًا ولن تصبح نينوى المقدسة منسية بعد اليوم).

وبعد احتلال العراق وتأكيدًا للتحالف الصليبي الصهيوني أهدى الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في يوليو سنة ٢٠٠٣م رئيس وزراء الكيان الصهيوني شارون خريطة رسمت في سنة ١٦٧٨م لأرض إسرائيل من النيل إلى الفرات.

أما الصليبيون الذين تحالفوا مع الولايات المتحدة فقد عبر عنهم خوزيه ماريا أثنار رئيس الوزراء الأسباني السابق الذي قال في محاضرة ألقاها بجامعة جورجتاون الأمريكية في الحادي والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٤م (إن مشكلة أسبانيا مع تنظيم القاعدة والإرهاب الإسلامي لم تبدأ مع أزمة العراق بل يجب أن نعود إلى الوراء لنبدأ من القرن الثامن الميلادي عندما تعرضت أسبانيا للغزو من جانب المسلمين ورفضت أن تكون جزءاً من العالم الإسلامي وخاضت معركة طويلة حتى استعادت هويتها).

نهب تراث العراق الحضاري:

اجتاحت قوات الحملة الصليبية الصهيونية بغداد في التاسع من أبريل سنة ٢٠٠٣م، وبدأت سرقة المتحف العراقي ببغداد يوم الجمعة الحادي عشر من أبريل سنة ٢٠٠٣م، وشملت أعمال السلب والنهب نحو (٢٤.٠٠٠) قطعة من معروضات المتحف جمعت من ٦.٥٥٥ موقعًا أثريًا تعود لحضارات العراق المختلفة تبدأ من عصور ما قبل التاريخ مرورًا بالحضارات السومرية، والآشورية، والبابلية، والإسلامية[١].

ومن المسروقات لوحة السبي البابلي التي لا بد أنها وقعت في أيدي الصهاينة الذين لن يتورعوا عن استخدامها من أجل التأكيد على دولتهم المزعومة ما بين النيل والفرات، ومن المسروقات أيضًا ثمانون ألفًا من الرقم الطينية المكتوبة بالخط المسماري التي تمثل أقدم مكتبة لدراسة اللغات القديمة في العالم.

وسرق اللصوص من القاعة السومرية واحدة من أندر التحف في العالم وهي المعروفة بالوركاء وقد عثر عليها فيما بعد وقد تهشمت إلى أكثر من عشرين قطعة[٢]، وكانت هذه القطعة الفريدة معروضة في الخزانة رقم ١ بالقاعة السومرية، ووصفها مؤلف كتاب:(كنوز المتحف العراقي) بما يلي: (وجه امرأة سومرية نحت بالحجم الطبيعي من رخام أبيض، كانت فيه العينان والحاجبان مطعمتين بأحجار كريمة ... يعد هذا الأثر من أنفس القطع القديمة وأحسن نموذج لفن النحت السومري في أدواره الأولى ولعله كان جزءاً من تمثال كبير أو أنه كان يعلق في الجدار. وجد في الوركاء ويرتقي زمنه إلى نحو ٣٠٠٠ ق.م، ورقمه في المتحف "٤٥٤٣٤ – م ع)[٣].

وسرق من القاعة نفسها تمثال إتاناما الذي يصل وزنه إلى أكثر من ١٥٠ كيلو جرام، كما سرق من القاعة الآشورية تمثال حجري للملك شلمنصر الثالث، وأعيد بعد تحطيمه إلى ست قطع، وفي القاعة الحضرية عندما فشل اللصوص في سرقة تمثال

---

(١) بصمة جي، فرج: كنوز المتحف العراقي (بغداد ١٩٧٢م) ص ١٢١-١٢٣
ويرجع تاريخ إنشاء المتحف العراقي إلى سنة ١٩٢٣م إذ عرضت في ذلك الوقت أول مجموعة من الآثار التي كشفت عنها بعثات علمية عراقية وأجنبية، وكان مقر المتحف آنذاك في مبنى القشلة، تم انتقل المتحف إلى مقره الحالي الذي افتتح في التاسع من نوفمبر سنة ١٩٦٦م، وكانت معروضات المتحف موزعة في عشرين قاعة تبلغ مساحتها نحو ٤.٧٠٠ متر مربع تضم آثار الحضارت المختلفة مثل: عصور ما قبل التاريخ، والحضارة السومرية، والحضارة البابلية، والحضارة الآشورية، والحضارة الفرثية الحضرية، والحضارة الساسانية، والحضارة الإسلامية.

(٢) *Waldbaum: Iraq's Plundered Past, p.*
Waldbaum: Iraq Alart, p.5

(٣) بصمةجي، فرج: المرجع السابق ص ١٥٠.

زوجة هرقل اكتفوا باقتلاع رأسه، ومن المسروقات أيضًا قيثارة تعود إلى العصر السومري عثر عليها في أور ويرجع تاريخها إلى نحو ٢٤٠٠ سنة قبل الميلاد([٤]).

ويوجد في المتحف العراقي خمس مستودعات تحتوى على مئات الآلاف من القطع الأثرية سطا اللصوص على ثلاثة منها واستولوا على أكثر من ثمانية آلاف قطعة أثرية، ويعترف أحد ضباط الحملة على العراق بسرقة مستودعات المتحف ويشير إلى دقة اللصوص بقوله: (لم تختر القطع المسروقة صدفة على العكس تمامًا دخل اللصوص وأحرقوا إسفنجًا لإنارة طريقهم، ثم توجهوا مباشرة إلى الصناديق التي تحوى القطع الصغيرة فأخذوها دون المساس بغيرها).

وقد صنف فريق التحقيق الأمريكي اللصوص الذين نهبوا المتحف العراقي إلى ثلاثة مجموعات على النحو التالي:

المجموعة الأولى: كانت تعرف ما تبحث عنه، واختارت قطعًا من قاعات العرض.

المجموعة الثانية: توجهت مباشرة إلى المخازن.

المجموعة الثالثة: كانت من اللصوص العشوائيين.

ويتفق تصنيف الفريق الأمريكي مع شهادة الآثارية صباح العمري التي كانت تعمل في متحف الموصل، إذ اتبعت قوات الحملة نفس النهج في نهب متحف الموصل الحضاري فقد كانت هناك مجموعتان من اللصوص الأولى من المتخصصين الذين أتوا لنهب بتحف معينة، والمجموعة الثانية كان من اللصوص العشوائيين.

ولنقف أمام رأي روبروت سبرينجبورج مدير قسم الشرق الأوسط في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فيما جرى من نهب لتراث العراق الحضاري: (...إن المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين كانوا على علم بأن المتاحف العراقية معرضة للخطر، وأن ما حصل لم يكن نتيجة لعدم المعرفة فإما أن تكون الاتصالات بين المسؤولين في واشنطن والجنود في الميدان غير فاعلة أو حصل شيء غير مفهوم) وأشار سبرينجبورج إلى أن كل اللصوص الذين سطوا على المتحف العراقي لم يكونوا من الرعاع والدهماء بل كان بينهم من يعرفون عما يبحثون، ويدعم رأيه شهادة أحد موظفي المتحف الذي ذكر بأنه شاهد رجلين أوروبيي الملامح دخلا المتحف واكتفيا بالإشارة إلى عدد من القطع الأثرية فتولى آخرون جمعها.

وفي أكتوبر ٢٠٠٣م أوفدت الحكومة الأمريكية بعثة إلى العراق لتقييم ما دمر من تراث العراق الحضاري الثقافي، وبعد عودته إلى الولايات المتحدة صرح أحد أعضاء البعثة وهو راي جيننجز والذي يعمل باحثًا في المعهد الأمريكي للسلام بأن: (الفنون والثقافة من القلاع الأخيرة التي تظل رموز الهوية الوطنية موجودة فيها ومن ثم فإنها

[٤] () يوسف، فرج الله أحمد: آثار فلسطين والعراق تحت الاحتلال (الفيصل ع ٣٣٧، ص ٤٥).

ضرورية لإعادة بناء الأمة ... إن ضياع مقتنيات متحف بغداد كان مدمرًا وكان وقعه عظيمًا لأن القوات الأمريكية لم تحمه).

وعن عمليات إحصاء التحف التي نهبت من المتحف الوطني ببغداد قال دوني جورج الذي تولى إدارة المتحف الوطني ببغداد بعد الاحتلال: (إن أحدث عملية جرد لمتحف بغداد أشارت إلى أن أكثر من ١٥.٠٠٠ قطعة أثرية من نحو ٦٠٠.٠٠٠ قطعة كانت موجودة فيه ما زالت مفقودة، ويحتمل أن يرتفع العدد أكثر لأن عمليات الجرد في مخازن المتحف ما زالت مستمرة)، وعن استعادة القطع التي سرقت قال: (استعيد أكثر من أربعة آلاف قطعة، وتؤكد المعلومات التي لدينا أن أكثر من ألف قطعة ضبطت في الولايات المتحدة، وأن نحو ٥٠٠ قطعة انتهى بها الأمر في فرنسا، و٢٥٠ في سويسرا، و١٠٠ في إيطاليا).

وكانت منظمة اليونسكو قد قدمت تقريرًا للسكرتير العام للأمم المتحدة في نوفمبر سنة ٢٠٠٢م تحذر فيه من الأضرار التي يمكن أن تلحق بالآثار العراقية بعد أن بدأ الصليبيون والصهاينة الإعداد لحملتهم على العراق، وقبيل بدء الحملة في مارس سنة ٢٠٠٣م قدمت اليونسكو تقريرًا آخر إلى وزارة الخارجية الأمريكية يتضمن المواقع الأثرية والمعالم التاريخية في العراق مع قائمة بالمتاحف العراقية، وخريطة للمواقع الأثرية في العراق، ولكن الصليبيين والصهاينة استنادًا إلى تجربتهم السابقة في اغتصاب تاريخ فلسطين وآثارها أقدموا غير مكترثين بشيء على تدمير آثار العراق وتراثه الحضاري (٥).

فإلى جانب سرقة المتحف العراقي ونهب محتوياته أشرفت قوات الحملة الصليبية الصهيونية على إحراق مكتبة القرآن في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ببغداد التي تضم مخطوطات لمشاهير الخطاطين المسلمين مثل: ابن البواب، وابن مقلة، وياقوت المستعصمي، كما تم إحراق جميع المخطوطات الموجودة في دار صدام للفنون التي كان يوجد بها ٢٠.٢١٤ مخطوط مفهرس على النحو التالي:

أولاً: ١٦.٤٦١ مخطوط باللغة العربية.

ثانيًا: ٢.٧٥٧ مخطوط باللغة الفارسية.

ثالثًا: ٨٧٦ مخطوط باللغة التركية.

رابعًا: ٢١٠ مخطوط باللغة الكردية.

ومن أقدم المخطوطات التي كانت موجودة في دار صدام رسالة أحمد بن الواثق إلى محمد بن يزيد التمالي النحوي، وهي مكتوبة بخط أبوالحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب (٣٥٠ – ٤١٣هـ/٩٦١ – ١٠٢٢م) (٦).

---

(5) *Brodie: Spoils of War, p.16*

(٦) يوسف، فرج الله أحمد: المرجع السابق ص ٤٦.

وأحرقت قوات الحملة الصليبية الصهيونية المكتبة الوطنية التي تضم الوثائق والمخطوطات التي تمثل أرشيف العراق بالكامل، التي كانت تضم آلاف الأطنان من الوثائق والمخطوطات، وقال مديرها شاكر الخزاعي تعليقا على ما حدث: (لقد أحرقوا تاريخ هذا البلد الآن نقف هنا لنبدأ من الصفر لقد دمروا ذاكرتنا).

وقال مدير المحفوظات الوطنية سعد اسكندر: (إن ٦٠% من المحفوظات التي تضم ملايين الوثائق الخاصة بالوزارات والسجلات ووثائق الملكية منذ العهد العثماني قد فقدت ... هذه الوثائق فريدة لأنها تمثل الأرث المكتوب للدولة العراقية الحديثة الذي فقد للأبد)، وذكرت حليمة حسين مسؤولة قسم الكتب التراثية في المكتبة الوطنية أن اللصوص قاموا بسرقة نحو ٣٠٠ مخطوط منها كتاب القانون في الطب لابن سينا.

وكانت المكتبة الوطنية تضم سجلات معظم الوزارات منذ العهد العثماني (١٦٣٨ – ١٩١٨م)، وفترة الاحتلال البريطاني (١٩٢٠ – ١٩٣٢م)، والعهد الملكي (١٩٣٢ – ١٩٥٨)، والعهد الجمهوري (١٩٥٨ – ٢٠٠٣م)، وكانت العديد من الوثائق العائدة للعهدين العثماني والملكي قد نقلت إلى أقبية مبنى الإدارة العامة للسياحة ببغداد لكنها تعرضت للتلف بعد أن تسربت المياه إلى الأقبية، ونهب المتحف الوطني للفن الحديث الذي يضم روائع الفن العراقي الحديث([٧]).

ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي كانت فيه قوات الحملة الصليبية الصهيونية تقوم بتدمير تراث العراق وحضارته في بغداد كانت القوات الكردية المتحالفة معها وفي اليوم نفسه (الجمعة الحادي عشر من أبريل سنة ٢٠٠٣م) تشرف على تدمير جامعة الموصل وسلب كل ما فيها، ونهب محتويات متحف الموصل الحضاري، الذي نزعت من حوائطه حجارة من الآجر عليها نقوش مسمارية، وأكثر من ثلاثين لوحة آشورية من البرونز.

ولنترك المجال لشهادة أمينة متحف الموصل برناديت حنا متى: (قبل الحرب أرسلنا ٥٥٠٠ قطعة أثرية إلى متحف بغداد، ووضعنا كل القطع الأخرى في مستودع خارج المتحف سد بابه بحائط من الأسمنت لكن اللصوص وصلوا إلى المستودع وسرقوا ما به، وفي منتصف ليل الخميس ١٠ أبريل سنة ٢٠٠٣م توقفت سيارة أمريكية كبيرة أمام المتحف ونزل منها أشخاص بالزي الكردي مكثوا بالمتحف ساعتين ثم رحلوا، وفي أثناء ذلك جاءت شاحنة نزل منها مسلحون سرقوا نحو ثلاثين قطعة) ([٨]).

أما في متاحف المواقع الأثرية فقد تواصلت أعمال النهب والتدمير ففي موقع نمرود سرقت العديد من النقوش والتماثيل، ومن أهمها نقش للمعبود آشور، وفي نينوى

---

[٧] () يوسف، فرج الله أحمد: المرجع السابق ص ٤٦.

[٨] () يوسف، فرج الله أحمد: المرجع السابق ص ٤٦-٤٧.

تم تحطيم حائط أثري في قاعة الملك سنحاريب يحتوى على نقش كانت تجرى به ترميمات بالتعاون مع بعثة أثرية إيطالية، وفي الحضر سرقت التماثيل من المواقع الأثرية، وفي بابل داست جنازير دبابات الحملة على المواقع الأثرية المفتوحة التي تجرى بها الحفريات، وصرح محمد طاهر عباس مدير متحف نبوخذ نصر في بابل بأن أعمال السلب والنهب بدأت بعد ساعة واحدة من دخول قوات الحملة إلى بابل.

وتم نهب متحف نبوخذ نصر، ومتحف حمورابي، وسرقة مسلة حمورابي، كما تعرض معبد نن ماخ "السيدة العظيمة" للنهب، وبدأت عمليات الحفر العشوائي في المواقع الأثرية بمدينة أور.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية استقال احتجاجًا على هذه الجرائم مارتن سوليفان رئيس اللجنة الاستشارية للشؤون الثقافية التابعة للبيت الأبيض واثنانذ من أعضائها هما: ريتشارد لانيير، وجاري فينكان.

وعلق الصحافي البريطاني روبرت فيسك وهو أحد شهود العيان على تدمير تراث العراق وحضارته على أيدي قوات الحملة الصليبية الصهيونية، بقوله: (ابتلعت ألسنة النيران مكتبة بغداد ... تبخرت المكتبة الوطنية والأرشيف بما فيه الأرشيف الملكي القديم للعراق ... لم يحرك الأمريكيون ساكنًا وبالنسبة للعراقيين عاد التاريخ إلى نقطة الصفر مع تدمير محتويات المتحف وإحراق الأرشيف الوطني والمكتبة القرآنية. لقد اندثرت هوية العراق الثقافية بلمح البصر)، وأشار روبرت فيسك إلى أنه تأكد من أن البنزين قد استخدم لتوزيع الحريق في كل أرجاء المكتبة.

وعلق صالح لمعي مصطفى منسق المجلس الدولي للآثار والمواقع "إيكوموس" على ما حدث للآثار العراقية بقوله: (ولا يسعنا إلا أن نسأل: هل كان الهدف من هدم ونهب وسلب حضارة العراق الانتقام من نبوخذ نصر (٦٠٥ – ٥٦٢ ق.م) وحملاته في فلسطين وأسر ملوكها وهدم معابدها ونقل خزائنها في العصر البابلي الأخير؟ سيظل هذا الحدث الخطير محفورًا في ذاكرة التاريخ ولن ينسى سكان الأرض ما حدث للتراث الثقافي في العراق).

ومما يؤكد نية الحملة الصليبية الصهيونية المبيتة لنهب تراث العراق الحضاري أن مسؤولين من وزارة الدفاع الأمريكية اجتمعوا في الرابع والعشرين من يناير ٢٠٠٣م مع المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية، ومثل وزارة الدفاع في الاجتماع جوزيف كولينز نائب مساعد وزير الدفاع للعمليات الخاصة، وأربعة آخرين من المسؤولين في الوزارة، في حين مثل المجلس الأمريكي للسياسة الثقافية كل من: رئيس المجلس آشتون هاوكنز، ونائبه آثور هوتون، وماكسويل أندرسون مدير متحف ويتني للفنون الأمريكية بنيويورك، وماجواير جيبسون رئيس الرابطة الأمريكية للأبحاث، وأستاذ آثار ما بين النهرين في معهد الشرق بشيكاغو، واستمع مسؤولو وزارة الدفاع خلال الاجتماع لآراء الآثاريين عن ضرورة الحفاظ على المواقع الأثرية والمتاحف،

والمكتبات وغيرها أثناء الغزو، لكن قوات الحملة تجاهلت تلك الآراء، وقد عبر ماجواير جيبسون عن ذلك بقوله: (... كنت فعلاً آمل بأن تقوم القوات الأمريكية باحتلال المتحف العراقي لحمايته. لقد كنت ساذجًا لأن ما كنا نتكلم عنه تبين أنه يقع في أسفل أولويات القيادة العسكرية، لقد طلبت منهم القيام بجهود لمنع النهب وقالوا أنهم سيفعلون ذلك وظننت أننا حصلنا على تأكيدات، غير أنها كانت من دون فائدة) ([٩]).

وقال تعليقًا عما حل بالمتحف الوطني ببغداد من سلب ونهب: (يبدو أن جزء من السرقة كان عملاً متعمدًا ومدروسًا للغاية فقد تمكن اللصوص من الحصول على المفاتيح من مكان ما، وقاموا بسرقة القطع الأفضل والأكثر أهمية ولدي شكوك بأن العملية كانت مدبرة خارج البلاد لا بل أنا متأكد من ذلك)، وأضاف: (عندما يبدأ المتحف في مراجعة محفوظاته، ويقوم بعملية جرد دقيق لكل ما هو موجود، حينئذ اعتقد بأن قائمة القطع التي يتم التحقق من أنها مفقودة ستتسع)([١٠]).

وذرًا للرماد في العيون أعلنت الحكومة الأمريكية أنه تم ضبط آثار مهربة من العراق مع بعض الصحافيين، والجنود العائدين إلى أمريكا، ويأتي في مقدمة هؤلاء الصحافي جوزيف براوده الذي أصدر كتابًا في مارس ٢٠٠٣م بعنوان: (العراق الجديد: إعادة إعمار العراق من أجل شعبه) هذا الصحافي المرهف الحس الذي أنشغل بإعادة أعمار العراق ضبط متلبسًا بسرقة ثلاث أختام إسطوانية من العصر الأكدي، وكان يوجد بالمتحف العراقي العديد من هذه الأختام التي وجدت في عدة مواقع أثرية، وهي مصنوعة من أحجار كريمة، ونقشت عليها مشاهد تمثل موضوعات دينية وأسطورية مثل ملحمة جلجامش وأنكيدو وإيرها، ويرجع تاريخ هذه الاختام إلى نحو سنة ٢٣٥٠ ق.م ([١١]).

وفي إطار محاولة قادة الحملة الصليبية الصهيونية على العراق التغطية على تآمرهم في نهب آثار العراق وتدميرها قاموا في يونيو ٢٠٠٣م بفتح المتحف العراقي وعرض مجموعة المجوهرات الآشورية التي يبلغ وزنها نحو ثلاثين كيلو جرام من الذهب، ورغم أنها كانت محفوظة في مستودعات المصرف المركزي منذ سنة ١٩٩٠م بعد العثور عليها في موقع نمرود، إلا أن قادة الحملة ادعوا كذبًا أنهم أنقذوها من السرقة ([١٢]).

([٩]) الناشف، خالد: تدمير التراث الحضاري العراقي – فصول الكارثة(مقاطع من كتاب قيد النشر نشرت بصحيفة الحياة، العددان ١٤٨٥٤، ١٤٨٥٥ – ٣٠ رمضان – ١ شوال ١٤٢٤هـ الموافق ٢٤ – ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٣م.

([10]) *Young: The Crime of the Century, p. 4*

([١١]) بصمة جي، فرج: المرجع السابق ص ٢٣٤.

([١٢]) يوسف، فرج الله أحمد: المرجع السابق ص ٤٨.

وإذا كان قادة الحملة على العراق قد ركزوا على قيام مجموعات من الغوغاء بنهب آثار العراق فإننا نذكرهم بأن الجيش الأمريكي يضم فوجًا مكلفًا بالأعمال القذرة من سرقة وسلب ونهب، وإن هذا الفوج قد تم تأسيسه منذ سنة ١٨٨٦م، مما يعني أن لهم خبرة عريقة في أعمال النهب والسلب والتدمير.

إن الولايات المتحدة وبريطانيا اللتان قادتا الحملة على العراق اخترقتا العديد من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي نصت على حماية التراث الحضاري أثناء الحروب، ولسنا في حاجة للتذكير بتلك المعاهدات، فقد بدأت دول العالم منذ القرن التاسع عشر الميلادي بإبرام المعاهدات التي تهدف إلى حماية التراث العالمي أثناء الحروب منذ أن صدر قانون ليبر سنة ١٨٦٣م مرورًا بمعاهدتي لاهاي الأولى سنة ١٨٩٩م، والثانية سنة ١٩٠٧م، وأفاقية سان جرمان سنة ١٩١٩م،وإعلان لندن سنة ١٩٤٣م إلى تأسيس منظمة اليونسكو سنة ١٩٤٦م والتي نصت لائحة تاسيسها على ضرورة حماية التراث الثقافي العالمي والمحافظة عليه، ثم وقعت الدول الأعضاء في منظمة اليونسكو ومن ضمنها بالطبع الولايات المتحدة وبريطانيا على جميع المعاهدات التي اقرتها المنظمة ومنها على سبيل المثال اتفاقية لاهاي سنة ١٩٥٤م الخاصة بحماية التراث الثقافي في أوقات الحروب والاحتلال والنزاعات المسلحة، والتوصية التي أصدرتها المنظمة سنة ١٩٥٦م والتي تقضي بمنع تصدير القطع الأثرية، وعدم اقتناء المتحف لأي قطع أثرية ترد إليها بطرق غير مشروعة، وأخيرًا اتفاقية سنة ١٩٧٠ التي منعت تصدير القطع الأثرية والتراثية بطرق غير مشروعة، كما حظرت نقل ملكية الآثار والتراث نتيجة الحروب([١٣]).

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية التي انتهكت كافة المعاهدات السابق ذكرها تبدو حريصة على الاهتمام بتراثها فقد وقعت على عدة اتفاقيات منها ميثاق واشنطن سنة ١٩٣٥م مع مجموعة الدول الأمريكية الذي ينص على ضرورة حماية المباني التاريخية أثناء الحرب، وعدم استخدام المباني التاريخية في أوقات الحرب لأغراض عسكرية([١٤]).

ولنترك المجال لأستاذ تاريخ الفن القديم بجامعة كولومبيا زينب بحريني للتعليق على قيام قوات الحملة بتدمير الآثار العراقية، فقد جاء في مقال لها نشر بصحيفة الجارديان في سبتمبر ٢٠٠٤م: (لم يتوقف الدمار الثقافي الذي ألحقته قوات التحالف بالمناطق الأثرية في العراق عند حد أعمال سلب المتاحف بعد الغزو بل استمرار تلك القوات في إقامة معسكراتها داخل تلك المناطق القديمة كمناطق الآثار البابلية رغم

---

[١٣] () علي، عباس سيد أحمد: عودة الآثار إلى أوطانها (ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ص ص ١١-١٣.

[١٤] () الأمين، يوسف مختار: عرض كتاب: أخلاق جمع الممتلكات الثقافية، أدوماتو، ع ٣، ص ٧١؛ علي، عباس سيد أحمد: المرجع السابق ص ١١.

إعلانها المستمر إيقاف تلك الأعمال، وإن وجود تلك القوات داخل المناطق الأثرية واستمرارها في أعمال الحفر والردم باستخدام المعدات والماكينات العسكرية الثقيلة قد دمر الكثير من تلك الآثار).

أيدي الصهاينة تعبث بآثار العراق:

في سنة ٢٠٠٢م أعلن الصهاينة أنهم استولوا على ما ادعوا أنه أقدم مخطوط للتوراة من بلدة ذي الكفل الواقعة في وسط العراق والتي استماتت قوات الحملة الصليبية الصهيونية للاستيلاء عليها في بداية العدوان على العراق، ولا نعرف ما جرى في هذه البلدة بعد احتلال العراق، ومن المرجح أن يتم تسليمها إلى الصهاينة في محاولة لاختراع تاريخ لهم في وادي الرافدين.

وفي أغسطس سنة ٢٠٠٣م كشف آثاري أردني أن آثاريين صهاينة ينسقون من أجل ترتيب زيارات لبلدة ذي الكفل وقال في تصريح نشرته صحيفة الحياة: (إن خبراء الآثار الإسرائيليين يريدون إجراء أعمال فحص وتنقيب للموقع المذكور الذي يحوي مقابر ورموزًا لشخصيات تاريخية يهودية وتحمل جدرانه كتابات عبرية).

ويتوقع أن تتحول بلدة ذي الكفل إلى هدف حيوي للآثاريين والسياح الصهاينة، وذكرت صحيفة معاريف الصهيونية إمكانية قيام الآثاريين الصهاينة بإجراء تنقيبات أثرية في العراق، ومما يؤكد ذلك أن وزير السكان في مجلس الحكم المعين من قبل قوات الحملة أكد في فبراير سنة ٢٠٠٤م على أنه سيتم فتح مزار النبي ذي الكفل أمام الزوار اليهود، ولما أثارت تصريحاته ضجة في العراق وخارجه حاول التملص منها بقوله: (لم أتحدث عن زيارة اليهود في شكل مطلق، بل عن اليهود العراقيين وحقهم في زيارة المرقد).

وفي مارس ٢٠٠٤م عاد الوزير نفسه ليؤكد حق اليهود في العودة للعراق واستعادة أملاكهم فقد نقلت عنه وكالة الصحافة الفرنسية قوله: (أن قانون إدارة الدولة لم يخص إعادة الممتلكات إلى فئة دون أخرى ولا يستثني أحدًا من القوميات والأديان والطوائف، ويعرف الجميع أن اليهود كانوا في العراق ولهم ممتلكات لذلك لا يمكن التمييز وفق القانون بين أحد وآخر).

وأطلق زيدان كفافي الأستاذ بجامعة اليرموك تحذيرًا من أن يفتح الصليبيون المجال أمام الصهاينة للعبث في آثار العراق بقوله: (الخوف ليس من الأمريكان والإنجليز على التراث الثقافي العربي والإسلامي ... الخوف من أن يسمح هؤلاء للصهاينة بالتنقيب في أور وبابل وغيرها من المواقع التي يعتبرون أنهم كانوا بها ذات يوم ... ينادون بحق تاريخي مزعوم ... صحيح يهمني استرجاع ما نهب من

قطع أثرية وفنية لكن ما يهمني أكثر هو أن تبقى أبواب بابل مغلقة في وجه المعاول الصهيونية).([١٥])

ويبدو أن مخاوف زيدان كفافي في محلها فقد بدأت الجامعات والمراكز الصهيونية، والعصابات التي تتاجر في الآثار بإجراء حفريات أثرية مكثفة في العديد من المواقع الأثرية بالعراق، وفي أغسطس سنة ٢٠٠٣م قام وفد من الآثاريين الصهاينة بزيارة للعراق جالوا خلالها على العديد من المواقع الأثرية، وتفقدوا متحف نينوى بمدينة الموصل بصفة خاصة وهو المتحف الذي نهبت منه ١٠.٧٣٧ قطعة أثرية بعد احتلال العراق في أبريل سنة ٢٠٠٣م، وأعيد منها نحو ٦٧١ قطعة فقط حتى نهاية يوليو من السنة نفسها.

وفي أبريل ٢٠٠٤م نشرت صحيفة الصنارة التي تصدر باللغة العربية في الناصرة بفلسطين المحتلة أن ثلاث حاخامات صهاينة يقومون بالإشراف على عمليات تنقيب عن الآثار في بابل، وتجري هذه التنقيبات تحت حماية القوات البولندية المشاركة في الحملة الصليبية الصهيونية على العراق.

هذا وقامت قوات الحملة بعمليات بحث مكثفة عن ما يعده الصهاينة أقدم نسخة من التلمود البابلي زعموا أنها كانت موجودة في مقر الاستخبارات العراقية ببغداد، وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن المهمة قد أوكلت إلى فرقة (ميت – ألفا) وهي الفرقة التي كانت مكلفة بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل المزعومة، ولم تسفر عمليات البحث عن شيء.

الحفريات العشوائية:

إن انتزاع القطع الأثرية من أماكنها يعد تخريبًا للمواقع الأثرية لأنه يفقدها العناصر الأساسية المطلوبة للدراسة العلمية فابتعاد القطع الأثرية عن محيطها الطبيعي يحرم الآثاريين من معرفة التفاصيل الخاصة بدراسة حياة من ترك هذه المخلفات الأثرية ([١٦]).

بدأت عصابات مسلحة التنقيب عن الآثار في العراق بعد الاحتلال في ظل عدم اهتمام قوات الحملة الصليبية الصهيونية بتوفير الأمن في المدن العراقية ناهيك عن المواقع الأثرية، ومن تلك المواقع موقع شوخا المدينة السومرية التي بدأت فيها أعمال الحفر الأثري منذ سنة ١٩٩٩م، ولقد زارت الموقع جوان فرشخ الكاتبة المتخصصة في الآثار وتصف الوضع الذي آل إليه الموقع بعد عمليات الحفر العشوائية التي جرت فيه بقولها: (تبدو المدينة أشبه بساحة معركة دارت اليوم ولو قصفتها طائرة من طراز

([١٥]) كفافي، زيدان: الدخول إلى بابل من بوابة الآثار ص ص ٤–٨ (مجلة جامعة اليرموك، العدد ٨٠، يوليو ٢٠٠٣م) ص ص ٥–٧.

([١٦]) الأمين، يوسف مختار: عرض كتاب: أخلاق جمع الممتلكات الثقافية، أدوماتو، ع ٣، ص ٧١.

بي ٥٢ لما أحدثت فيها هذا المدى من الأضرار ... حُفر اللصوص تشبه فوهات البراكين وتجاوز قطرها أحيانًا أربعة أمتار وكسر الفخار تغطى أرض الصحراء المحيطة، وحطام الآجر مبعثر في كل أرجاء الموقع وتهدمت جدران المعبد والقصر المشيدة من الآجر ... أعدنا ٢٥ قطعة خزفية بحال ممتازة من شوخا إلى متحف بغداد) ([١٧]).

وكان دوني جورج أعرب عن خشيته من أن يقوم العمال الذين تدربوا على الحفر في المواقع الأثرية قبل الاحتلال على المساهمة في نهب المواقع التي عملوا بها، وهو ما أكدته جوان فرشخ التي زارت موقع أم العقارب الذي أشرف دوني جورج على حفريات أجريت به فيما بين سنتي ١٩٩٩ – ٢٠٠١م ويعود الموقع إلى الفترة السومرية، ورأت به اللصوص الذين قادوها في جولة حول الموقع تأكدت من خلالها أنهم كانوا ممن يعملون به قبل الاحتلال ([١٨]).

وقامت قوات الحملة بالسيطرة على المواقع الأثرية في مدينة سامراء والتي تعد من أهم مواقع الحضارة الإسلامية في العالم، واعتقلت مدير الآثار في سامراء عبدالصمد كريم، وقامت قوات الحملة بجرف المواقع الأثرية في سامراء غير عابئة بما تضمه من كنوز أثرية ترجع إلى عهد الخلافة العباسية.

وفي أكتوبر سنة ٢٠٠٣م تم القبض في الناصرية على اثني عشر شخصًا وصفوا بأنهم من عصابات اللصوص المتخصصة في سرقة الآثار العراقية، وفي حوزتهم تسع عشر قطعة أثرية سرقت من موقع الجوخة الأثري (تل الجوخ) الذي يقع في قضاء الرفاعي التابع لمحافظة ذي قار، والقطع الأثرية التي ضبطت مع هؤلاء اللصوص عبارة عن رُقم حجرية وفخارية، وأوان معدنية، وتماثيل يعود تاريخها إلى نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ([١٩]).

وفي ديسمبر سنة ٢٠٠٣م أعلن عبدالحميد سعيد مدير آثار كربلاء أن المواقع الأثرية في كربلاء وما حولها تتعرض لأعمال السرقة والنهب من قبل عصابات تقوم بعمليات حفر وتنقيب مستمرة، ولم تقتصر هذه العمليات على المواقع الأثرية المعروفة بل تعدتها إلى الحفر والتنقيب في مواقع أثرية غير مسجلة.

([١٧]) فرشخ، جوان: إغتيال بلاد الرافدين – القصة الكاملة ص ص ١٦–٢٥ (مجلة الآثار، السنة الثانية، العدد السادس، أغسطس – سبتمبر ٢٠٠٣م) ص ص ١٨–٢٠.

Farchakh.: The Specter of War, pp. 14-15

([١٨]) فرشخ، جوان: المرجع السابق ص ص ٢٠–٢٥.

Farchakh.: The Specter of War, pp. 14-15

[١٩]) يوسف، فرج الله أحمد: المرجع السابق ص ٤٩.

وفي مارس ٢٠٠٤م دعا دوني جورج قوات الحملة لوقف سرقة المواقع الأثرية للحيلولة دون تبديد كنوز العراق الأثرية، وأشار إلى أن المواقع الأثرية في العراق تتعرض للسرقة يوم بعد يوم، وأوضح جورج أنه يسعى لدى السلطات الأردنية لاستعادة مئات من القطع الأثرية التي ضبطتها الجمارك الأردنية عند تهريبها من العراق.

ونشرت وكالة رويترز تقريرًا في أبريل ٢٠٠٤م عن قيام عصابات مسلحة بالبحث عن الآثار في العراق، ومما جاء في التقرير: (إنها عملية لا تحتاج إلى تكنولوجيا أو إراقة دماء لكنها جريمة تحرم الإنسانية من جذور وجودها في سكون الليل يسطو اللصوص بانتظام على كنوز أثرية في جنوب العراق لم يكتشفها أحد منذ آلاف السنين، وعلى ضوء مشاعل الكيروسين وبالمعاول تنقب عصابات مسلحة في الرمال المتحركة على أطراف سهل الفرات جنوب بابل، وتسرق تحفًا مدفونة مع آثار سومرية منذ خمسة آلاف سنة، وقبل أن يحدد الآثاريون مواقع التنقيب يكون اللصوص عاثوا فسادًا في قصور ومعابد ومقابر قديمة تحمل مفاتيح حضارات تضرب في عمق التاريخ، وقد لا يعرف أحد إطلاقًا ماذا فقد لأن اللصوص يسرقون التاريخ قبل اكتشافه).

ومن المواقع التي أشار تقرير رويترز إلى تعرضها للحفر العشوائي موقع دبروم الذي يعود للعهد السومري وهو يقع قرب قرية ضاهر بمحافظة ذي قار، وذكر عبدالأمير حمداني مدير الآثار في المحافظة أن أعمال الحفر العشوائي تنتشر في ذي قار ووصفها بأنها جريمة ضد الإنسانية، وأشار إلى أن القطع الأثرية التي سرقت من متاحف العراق مسجلة ويمكن استعادتها، لكن القطع الأثرية التي يستخرجها اللصوص من المواقع الأثرية لا يمكن استعادتها.

وفي الحادي عشر من أبريل ٢٠٠٤م نشرت صحيفة الحياة تصريحات لأحد مسؤولي الآثار في الناصرية جاء فيها: (إن العصابات تقوم حاليًا بعملية نهب منظم للمواقع الأثرية في الناصرية وخاصة مدينتي الجوخة (تل الجوخ) وأم العقارب الأثريتين اللتين تقعان على بعد ١٢٠ كيلاً شمال الناصرية، والحراس العاملين في تلك المواقع عاجزون تمامًا عن مواجهة تلك العصابات المسلحة، فضلاً عن أن هذه المواقع الأثرية تبعد نحو ثمانين كيلاً عن الطرق الرئيسة وتصعب حمايتها في ظل الأوضاع الأمنية المتردية التي يشهدها العراق).

وفي نهاية تصريحاته طالب المسؤول: (الأسرة الدولية بوضع حد لعمليات النهب في هذه المواقع حيث تقوم تلك العصابات بسرقة ما خف وزنه وغلا ثمنه)، وفي يوليو ٢٠٠٤م تم ضبط ٣٨ قطعة أثرية تم استخراجها من خلال عمليات حفر عشوائية تمت في منطقة تل العبيد بالقرب من الناصرية، وغالبًا ما تستغل العصابات وضعاف

النفوس فرصة عدم وجود حكومة تفرض الأمن فيعمدون إلى نهب الكنوز الأثرية وتهريبها إلى الخارج([٢٠]).

وقام ميكا جارين المحرر بمجلة الآثار التي يصدرها المعهد الأمريك للآثار في بوسطن بمرافقة وحدة عسكرية ضمن قوات الحملة تدعي الكرابنيري ***Carabinieri*** كلفت بحماية المواقع الأثرية في جنوب العراق، وزار برفقتها موقع الجوخة (تل الجوخ)، وشاهد الموقع وقد تم نهبه عن آخره، ويذكر أن اللصوص قد انقضوا عليه وحفروا به المئات من الخنادق والأخاديد، ويذكر أنه شاهد العديد من الرُقم الطينية المهشمة وقطع الفخار المتناثرة([٢١]).

وكان ماريو بونديولي أوسيو (سفير إيطاليا لدى العراق قبل الاحتلال) المستشار الثقافي لدى قوات الحملة وضع خطة لتدريب ١.٧٠٠ حارس عراقي ليتولوا حماية الآثار مع تزويدهم بأجهزة اتصال وتسليحهم لكن قوات الحملة رفضت تسليح حراس الآثار، ويعلق الضابط العراقي عباس فاضل المسؤول عن تدريب قوات حماية الآثار على ذلك بقوله: (إن أفراد قوتنا لا يسمح لهم بحمل السلاح وليس لهم سلطة توقيف اللصوص الذين يقومون بنهب المواقع الأثرية)، وعندما سأله ميكا جارين ألم يلاحظ أن قوات حماية المنشآت النفطية مزودة بكل الامكانيات اللازمة من أسلحة وسيارات ووسائل اتصال أجباه: (عليك أن توجه هذا السؤال إلى كل من جورج بوش وبوب بريمر)([٢٢]).

أما توفيق عابد محمد مدير الآثار في محافظة المثنى فقال: (إن الجانب الأمني يقع على عاتق قوات الاحتلال، ومن واجبهم أن يقوموا بحماية هذه المواقع، وليس نحن كما أننا لا نملك بنادق أو قوات حراسة فكيف يطلبون منا حماية هذه المواقع؟ والغريب أن قوات التحالف تلقي القبض على أي حارس آثار يحمل سلاحًا) ([٢٣]).

وذكر ماريو بونديولي أوسيو أنه طلب مرارًا خروج قوات الحملة من المواقع الأثرية خاصة في بابل لكن اعتراضاته ذهبت أدراج الرياح، وظل ماريو أوسيو ينافح عن الآثار العراقية حتى عزله في أبريل ٢٠٠٤م([٢٤]).

وفي سبتمبر ٢٠٠٤م أحبطت الشرطة العراقية في الناصرية محاولة تهريب ٢٠ قطعة أثرية استخرجت من عمليات الحفر العشوائي، وتتضمن لوحات فخارية عليها

([٢٠])ديبري، نانسي هاتش، متحف تحت الحصار(صحيفة الحياة ١٦-١٧يوليو ١٩٩٦، ترجمة يوسف الأمين)؛ الأمين، يوسف مختار: عرض كتاب: أخلاق جمع الممتلكات الثقافية، أدوماتو، ع ٣، ص ٦٥.

[21]() *Garen: War witin the war, p.29*

([22]) *Garen: War witin the war, p.29*

([23]) *Garen: War witin the war, p30*

([24]) *Garen: War witin the war, p.29*

نصوص بالكتابة المسمارية، ونايًا فخاريًا، ودمى وأوان من الفخار، وتضم الناصرية نحو ٨٠٠ موقع أثري تتعرض للحفر العشوائي من قبل عصابات تقوم باستخراج الآثار وتهريبها خارج العراق.

واعترف مفيد الجزائري وزير الثقافة في الحكومة المعينة من قبل قوات الحملة بتزايد عمليات التنقيب العشوائية في المواقع الأثرية، وأقر بعجز قوات الحملة عن حماية تلك المواقع، ويتم تهريب الآثار المكتشفة في عمليات الحفر العشوائي إلى خارج العراق ففي يوليو ٢٠٠٤م ضبطت الشرطة اللبنانية عصابة سطت على مصطافين عراقيين في مدينة بحمدون وكان ضمن ما سرق منهم أربعة صناديق مليئة بقطع فخارية أثرية.

إن سرقة المواقع الأثرية في العراق تتواصل بصفة يومية في طول البلاد وعرضها وقوات الحملة تغض الطرف عن ذلك ولا تحاول حتى الحد من هذه السرقات لأنها سوف تستفيد من تدمير تراث العراق الحضاري، وفي النهاية سيتم تقييم الوضع على أن العراقيين هم الذي سرقوا تراثهم، ولكن العراقيين يعون أبعاد المخطط الذي يحاك ضدهم فقد نقل عن أحدهم قوله: (إن الأمريكان لا يريدون الاستيلاء على بترولنا فقط بل على تاريخنا أيضًا)([٢٥]).

وقد أكد الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ذلك عندما سئل عن رأيه في نهب المتحف العراقي فبرر أعمال السلب والنهب بل شجع على المزيد منها بقوله:(... كان حادثًا رهيبًا واتفق مع الأشخاص الذين يعبرون عن أسفهم لحدوثه ... لكن لم أفاجأ أنه عمل انتقامي كما لو أننا فتحنا غطاء قارورة ممتلئة بالإحباط أنهم أشخاص تعرضت أسرهم للضرب والتعذيب والقتل فعبروا عن آرائهم بصوت عال ... لم أفاجأ عندما انتقم الناس من مخافر الشرطة، وخربوا المباني الحكومية وأنا راض عن مستوى هذا الشغب أو سمه ما تشاء لأن فيه تفريج عن النفس).

ولم يشرح لنا الرئيس الأمريكي قائد الحملة الصليبية الصهيونية على العراق كيف انتقم العراقيون من نظام صدام حسين عن طريق تدمير تراثهم الحضاري، ولم يوضح لنا لماذا لم يطال التدمير مبان حكومية مثل مبنى وزارة النفط الذي ضربت حوله قوات الحملة حصارًا محكمًا منذ دخولها بغداد، ولم يتمكن أحد من الاقتراب منه.

وتضامن العديد من المسؤولين والمثقفين الأمريكيين مع رئيسهم في تحميل مسؤولية ما جرى من سلب للمواقع الأثرية والمتاحف العراقية للعراقيين، فبقول ماثيو بوجدانوس المسؤول عن التحقيق في أحداث نهب المتحف العراقي: (... التحدي الذي واجهناه هو أن المتحف العراقي ارتبط بشكل وثيق بالنظام السابق وحزب البعث، والجميع يقولون أن النهب كان غضبًا على النظام)، ويبرر مارتن بايلي الأحداث بقوله:

([25]) *Farchakh: The Specter of War, p.15*

(... أن التخريب المنفلت هو رد فعل محموم لأقلية بعد أكثر من عقدين من الديكتاتورية، وأن البعض رأى المتحف ببساطة مبنى حكومي، وأن صدام حسين استغل الماضي العظيم للعراق لدعم نظامه).

ويبرر دوني جورج الذي تولى إدارة المتحف الوطني العراقي بعد الاحتلال قيام اللصوص بالحفر في المواقع الأثرية بقوله: (المال الذي يحصلون عليه يشجعهم ولو لم يكونوا مدفوعين بالفقر الذي يعيشونه لما تصرفوا على هذا النحو ... وماذا يستطيع أي حارس أن يفعل في مواجهة ثلاثمائة أو أربعمائة مسلح لذا من المستحيل حماية المواقع ما لم يتم الحصول على دعم كبير من قوات التحالف)، وتتفق معه الآثارية العراقية سلمى الراضي بقولها: (إذا كنت بحاجة لأن تطعم عائلتك فإن السبيل الوحيد هو نهب موقع ما).

لكن عراقيين آخريين حافظوا على تراثهم ومثال ذلك المواطن العراقي كريم جبار حسين الذي نقل من مركز صدام للفنون ٧٩ عملاً فنيًا وحفظها من الضياع إثر اجتياح بغداد، ثم أعادها في يوليو ٢٠٠٤م، ونقلت عنه وكالة رويترز قوله: (أردت إيصال رسالة إلى كل الذين اتهموا العراقيين بأنهم يسرقون تاريخهم وإرثهم وأن هناك الكثير من العراقيين الذين فعلوا ما بوسعهم من أجل المحافظة على الأرث الحضاري والثقافي لبلدهم).

ورغم حرص قادة الحملة على تدمير التراث الحضاري للعراق إلا أنه يجدر بي أن أنوه بالمحاولات الخجولة التي تبذلها القوات اليابانية المشاركة في الحملة فقد أقامت حواجز من الأسلاك الشائكة حول المواقع الأثرية في سامراء لحمايتها من عمليات الحفر العشوائي.

يعبر عبد الرحمن الطيب الأنصاري عن الضرر البالغ الذي تحدثه الحروب على التراث الحضاري للأمم بقوله: (الحروب تدمير للتراث والحضارة رغم وجود اتفاقيات عالمية تدعو إلى عدم التعرض للمؤسسات الثقافية والمتاحف إلا أننا لا نجد صدى لها... فأقل ما يؤلم البلد المُحارَبْ هو سلخه من حضارته ومن كل ما يعتز به) ([٢٦]).

وهذا ما آلت إليه أحوال الآثار العراقية بعد احتلال العراق لذا فإننا نخشى أن تستمر عمليات النهب والتدمير خاصة بعد أن بدأت الآثار المهربة من العراق تباع في مختلف أنحاء العالم، خاصة وأن قوانين العديد من الدول الغربية تجيز بيع الآثار المسروقة وتداولها، وعلى سبيل المثال فإن ما بين ٦٥-٩٠% من القطع الأثرية المتداولة في بريطانيا غير معروفة المصدر أو مسروقة.

([٢٦]) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب: الآثار بين عوادي الزمن وإهمال البشر (ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ص ٣٥.

وكانت الحكومة العراقية في سنة ١٩٩٨م قد رفعت دعوى ضد الصهيوني شولوم موساييف وهو أحد تجار الآثار في بريطانيا لاسترجاع منحوتة سرقت من موقع نينوى، وكان موساييف قد عرضها على متحف (الأراضي التوراتية) في القدس، وقام المتحف بالاستفسار عن المنحوتة لدى خبير آثار بلاد الرافدين البريطاني جون مالكولم راسيل الذي أقر بأنه التقط صورًا للمنحوتة في موقع نينوى سنة ١٩٨٩م مما يؤكد أنها سرقت منه، ورغم ذلك لم تستطع الحكومة العراقية استردادها.

وفي نوفمبر ٢٠٠٣م ضبطت شرطة نيو سكوتلانديارد إيرانيًا يعرض قطع أثرية تعود للعصرالآشوري مهربة من العراق للبيع في لندن، من أبرزها قطعة من الصوف المنسوج تعود لعهد آشور بانيبال (٨٨٤ – ٨٥٩ ق.م)، وقد وصفها خبير الآثار وعضو لجنة الثروات التاريخية والثقافية البريطانية بيتر كلايتون بقوله: (... قطعة مثل هذه تساوي مبالغ كبيرة لأنها منسوجة بطريقة رائعة)، وعبر عن خشيته بتهريب المزيد من الآثار العراقية المسروقة إلى بريطانيا بقوله: (... لكني أخشى أن يكون هناك تجار مشكوك في نياتهم هنا في بريطانيا يشجعون المهربين على جلب المزيد من المسروقات ضامنين لهم تسويقها وبيعها على رغم أنهم يعلمون أن العالم بأسره يتابع القطع الأثرية العراقية المسروقة).

وأعرب ضباط شرطة نيو سكوتلانديارد عن اعتقادهم بأن القطع الأثرية المهربة من العراق يتم اختيارها بناء على طلبات محددة من قبل تجار آثار بريطانيين.

وقد اعترض الصهيوني هيرشل شانكس محرر مجلة (آثار الكتاب المقدس) على رفض المؤسسة الأمريكية للآثار بيع الآثار المسروقة من العراق، واعتبر أنها تشوه بذلك سمعة تجار الآثار الذين يقومون بدور الوسيط بين اللصوص والمتاحف الغربية، وليس بغريب على هذا الصهيوني الترويج لسرقة الآثار العراقية ونهبها وهو الذي يدير مجلة تساهم في اغتصاب تاريخ فلسطين وآثارها.

وتقوم منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بالتعاون مع منظمة الشرطة الدولية (الأنتربول) من أجل استعادة الآثار العراقية المنهوبة، وعقد مؤتمر في مايو ٢٠٠٣م في مقر الأنتربول بمدينة ليون الفرنسية، تم خلاله الاتفاق على أن يزود الأنتربول اليونسكو بالتقنية اللازمة التي تساعد في جمع المعلومات عن القطع الأثرية المفقودة، وأصدر المجلس الدولي للمتاحف قائمة بالآثار العراقية المعرضة للخطر تهدف لتعريف ضباط الجمارك والشرطة وتجار التحف وهواة جمعها بالقطع المهربة من العراق.

وفي الحادي والثلاثين من مارس ٢٠٠٤م نشرت وكالة الأنباء الأردنية (بترا) تصريحًا لفواز الخريشة مدير دائرة الآثار الأردنية جاء فيه:(إن الدائرة تحتفظ بأكثر من سبعمائة قطعة أثرية عراقية ضبطتها أجهزة الجمارك والأمن العام و الاستخبارات العامة والأمن العسكري، وأن هذه القطع محفوظة حسب الطرق العلمية

وموثقة توثيقًا علميًا وجاهزة للتسليم حين يطلبها الأشقاء العراقيون، وإن الدائرة سلمت نسخة من شريط مدمج يحوي صورًا عن هذه القطع إلى الجهات المختصة في العراق)، وأشار المسؤول الأردني كذلك إلى أن الأردن سبق أن أعاد ألف قطعة أثرية عراقية ضبطت في أراضيه إلى العراق.

وصرح مدير عام دائرة الجمارك الأردنية محمود قطيشات أنه تم ضبط نحو ١٥٠٠ قطعة أثرية مهربة من العراق خلال الفترة من يناير إلى أغسطس سنة ٢٠٠٤م.

وفي سبتمبر ٢٠٠٤م بثت قناة "العربية" فيلمًا وثائقيًا بعنوان: (سرقة لمهد الحضارة) جاء فيه أن آلاف القطع الأثرية العراقية قد تم تهريبها عبر عواصم عربية، وخطوط طيران عربية، ومما يندى له الجبين أن الكثير من هذه الآثار قد انتهى بها المطاف في متحف "الأراضي التوراتية" بالكيان الصهيوني المقام على أرض فلسطين.

خاتمة:

وفي الختام ماذا بوسعنا أن نقدم لإنقاذ آثار العراق، أعتقد أننا حتى الآن لم نقدم ما يستحق الإشادة، وكل ما هنالك أن قامت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع دائرة الآثار بالأردن بتنظيم ندوة إقليمية حول معالجة الكارثة التي تعرضت لها المتاحف والآثار العراقية بعد الاحتلال، وعقدت الندوة في عمان خلال الفترة ما بين ٢٦ – ٢٨ مايو ٢٠٠٣م، كما قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعقد اجتماع في مقرها بتونس خلال يونيو ٢٠٠٣م تناول الكارثة التي ألمت بالمتاحف والآثار العراقية، وعقد اتحاد الآثاريين العرب بالقاهرة اجتماعًا في سنة ٢٠٠٣م لمناقشة أبعاد الكارثة، لكن توصيات الندوات والاجتماعات لم توضع موضع التنفيذ.

أما على الجانب الأوروبي والأمريكي فمن الجحود إغفال الجهود التي بذلها الأوروبيون والأمريكان سواء كانوا مسؤولين أو علماء وآثاريين أو جهات علمية فقد نوهت في هذه الورقة بمواقف عدد منهم أمثال: ماجواير جيبسون رئيس الرابطة الأمريكية للأبحاث، وآشتون هاوكنز رئيس المجلس الأمريكي للسياسات الثقافية، وماكسويل أندرسون مدير متحف ويتني للفنون الجميلة، ونيل برودي الباحث في مركز الآثار المحظورة بجامعة كمبردج، ويكفي أن نقف عند استقالة مارتن سوليفان، وريتشارد لانيير، وجاري فينكان من اللجنة الاستشارية للشؤون الثقافية التابعة للبيت الأبيض كونها تدل على مدى التزام المثقفين الأمريكان بمبادئهم، وتحديهم لحكومتهم احتجاجًا على ما حل بالمتاحف والآثار العراقية.

كما يجدر بي أن أنوه بالعديد من المثقفين والآثاريين الأوروبيين والأمريكان الذين هبوا للدفاع عن الآثار العراقية، ونددوا بما حل بالتراث الحضاري العراق عبر المقالات والأبحاث والكتب التي يصعب حصرها، وفضحوا من خلالها ما أقدمت عليه قوات الحملة من أعمال إجرامية بحق المتاحف والآثار العراقية.

ويكفي أن أشير إلى ما وصلني من هذه المقالات والأبحاث التي نشرتها مجلة (الآثار) التي يصدرها المعهد الأمريكي للآثار في بوسطن وتصدر كل شهرين، فقد خصصت هذه المجلة أكثر أعدادها التي صدرت منذ مايو – يونيو ٢٠٠٣م وحتى عددها الصادر في يوليو – أغسطس ٢٠٠٤م لمناقشة ما حل بالمتاحف والآثار العراقية فتحية إلى محرر المجلة بيتر يونج، وتحية إلى جين والدبم رئيس معهد الآثار في بوسطن على ما قدماه من جهد في سبيل فضح ما أرتكبته قوات الحملة من جرائم في حق الآثار العراقية، كما أشيد بجهود كل من جوان فرشخ، ميكا جارين اللذان تجشما السفر إلى العراق ورغم المخاطر الكثيرة التي تعرضا لها فقد قدما للعالم تقارير عن ما حاق بالمواقع الأثرية في العراق من كوارث في حين لم نقدم نحن الآثاريين العرب على أي خطوة في هذا المجال.

وإذ أتوجه بالشكر والتقدير إلى الاتحاد العام للآثاريين العرب على إدراج ما حل بآثار العراق من كوارث ضمن الملتقى السابع للآثاريين العرب، فإني أتساءل عن دور المثقفين العرب عامة، والآثاريين خاصة، حيث لم أرصد أي دور عربي فعال في هذا المجال، وإن كانت هناك جهود هنا وهناك فهي جهد المقل ولا تعادل نسبته ١% من جهود المثقفين والآثاريين في أوروبا والولايات المتحدة.

فهل سيقف دورنا عند حد رصد ما نرى فقط دون أن نتمكن من تقديم الشيء اليسير. فماذا أنتم فاعلون؟ سؤال موجه إليكم أيها الآثاريون العرب!

المراجع العربية

١ – الأمين، يوسف مختار:
- **عرض كتاب: أخلاق جمع الممتلكات الثقافية، تحرير: فيلس موش ميسنجر ص ص ٦٥ – ٧٢** (أدوماتو، العدد الثالث، شوال ١٤٢١هـ/يناير ٢٠٠١م)

٢ – الأنصاري، عبدالرحمن الطيب:
- **الآثار بين عوادي الزمن وإهمال البشر ص ص ٢٩ – ٣٨** (ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية حمايتها والمحافظة عليها، المجلد الأول ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)

٣ – ديبري، نانسي هاتش:
- **متحف تحت الحصار – القصة الكاملة لتدمير متحف أفغانستان الوطني ونهبه.** (ترجمة يوسف مختار الأمين، صحيفة الحياة، العددان ١٢١٩٥، ١٢١٩٦ – ١٦، ١٧ يوليو ١٩٩٦م)

٤ – بصمة جي، فرج:
- **كنوز المتحف العراقي.** (وزارة الإعلام، السلسلة الفنية ١٧،مديرية الآثارالعامة،بغداد ١٩٧٢م)

٥ – علي، عباس سيد أحمد:
- **عودة الآثار إلى أوطانها: حالة المملكة العربية السعودية ص ص ٩ – ٢٤** (ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية حمايتها والمحافظة عليها، المجلد الثاني ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)

٦ – فرشخ، جوان:
- **إغتيال بلاد الرافدين. ص ص ١٦ – ٢٥** (الآثار، العدد السادس، أغسطس – سبتمبر ٢٠٠٣م)

٧ – كفافي، زيدان:
- **الدخول إلى بابل من بوابة الآثار. ص ص ٤ – ٨** (اليرموك، العدد ٨٠، حزيران ٢٠٠٣م، جامعة اليرموك)

٨ – الناشف، خالد:
- **تدمير التراث الحضاري العراقي – فصول الكارثة.** (مقاطع من كتاب قيد النشر، نشرت في صحيفة الحياة، العددان ١٤٨٥٤، ١٤٨٥٥ ٣٠رمضان – ١شوال ١٤٢٤هـ/٢٤–٢٥نوفمبر ٢٠٠٣م)

٩ – يوسف، فرج الله أحمد:

- آثار فلسطين والعراق تحت الاحتلال ص ص ٣٢ – ٤٩ (الفيصل، العدد ٣٣٧، رجب ١٤٢٥هـ/ أغسطس – سبتمبر ٢٠٠٤م)

المراجع الأجنبية

1-Brodie, N.:

- ***Spoils of War*** *(PP. 16 - 19, Archaeology. July/August 2003, Institute of America, Boston University)*

2 -Farchakh, J.:

- ***The Specter of War*** *(PP. 14 - 15, Archaeology. May/Jun 2003, Institute of America, Boston University)*

3 -Garen, M.

- ***The War Within War*** *(PP. 28 - 31, Archaeology. July/August 2004, Institute of America, Boston University)*

4 -Waldbaum, J.C.:

- ***Iraq Alert*** *(P.5, Archaeology. May/Jun 2003, Institute of America, Boston University)*
- ***Iraq's Plundered Past*** *(P.5, Archaeology. july/August 2003, Institute of America, Boston University)*

5 -Young, P.A.:

- ***The Crime of theCentury*** *(PP. 4 - 5, Archaeology. July/August 2003, Institute of America, Boston University)*